غابر الاندلس وحاضرها

(١١) مدينة مجريط

سار بنا القطار من باريز إلى جنوبي فرنسا ماراً باراض عامرة بزراعتها دالة على سلامة ذوق أهلها وتفننهم في ضروب الحياة المادية والادبية ولما اجتزنا جبال البيرنات « جبل الثنايا » دخلنا ليلاً محطة إرون الاسبانية قاصدين إلى مجريط عاصمة اسبانيا الحديثة كثرت لواعج الاشواق إلى الصقع الاندلسي واشتدت تباريح الذكرى

واكثر ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام

تمثلت للعين تلك الامة العربية الغربية ، وما أثلته من الامجاد في هذه البلاد ، وظهرت فيه من مظاهر الحياة الراقية ، تذكرت جيلاً عظيماً . لم يبق سوى التحدث بطيب أخباره . والتطلع إلى جميل آثاره ، ذكرت عشرات الالوف من العظماء ، ضمت الاندلس اعظمهم ، وكان كل واحد أمة برأسه ومنهم من لم ينبغ أمثال لهم في أمة في القرون المتواصلة ووددت لو أمكن العمل بحكمة المعري حين قال :

خفف الوطء ما أظن اديم الـ أرض إلا من هذه الاجساد
وحرام بنا وإن قدم العهـ ـد هوان الآباء والاجداد

مدينة مجريط او مدريد هي عاصمة اسبانيا منذ سنة ١٥٦٠ وسكانها اليوم يقربون من سبعمائة الف وهي العاصمة التي اختارها فيليب الثاني لتوسطها من البلاد وكانت على عهد العرب حصناً أو بليدة ولم ترزقها الطبيعة نهراً كبيراً ولا ضاحية بديعة مشجرة مثمرة بل كان قديماً في أرباضها بعض الغابات فحطمت ولم يبق منها إلا القليل . على أن فيها اليوم ما في جميع عواصم الغرب من المرافق والمصانع . زرت بعضها وهي لا تختلف عن مصانع الامم اللاتينية الا قليلاً بل هي أقل عظمة من مصانع ايطاليا وفرنسا وليس في مجريط أثر يعتد به من آثار العرب ، واما آثار الاسبانيين الحديثة فليست مما يعجب به كثيراً لانها حديثة عهد على الاغلب وتكاد تكون الصبغة الدينية متجلية في كل مصنع من مصانعهم .

واكثر احياء المدينة ضيقة وبيوتها مزدحمة كسائر المدن المنحطة في أوربا الا أن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بعض الاحياء والدور المستحدثة هي على الطراز الغربي الجديد ولها حدائق وساحات على جانب من السعة مستوفاة شروط الصحة . وقد انشئت في زمن الحرب العامة في مجريط وغيرها من مدن اسبانيا بيوت اقامها اغنياء الحرب أي الذين اتجروا فيها وربحوا وربحت بهم اسبانيا لحيادها وقد احسنت لنفسها بالتزامها خطة المسالمة ومن هذه البيوت مايقتضي الوفاً من الليرات . فلما أشتدت الازمة على أوربا عامة لحق اسبانيا من أثرها شيء بالطبع فوقف العمل في بعض تلك البنايات وكذلك كثير من المشاريع والمعامل التي احدثوها مغتنمين فرصة تقاتل جيرانهم

في مجريط تسعون كنيسة من الكنائس التي لاشأن لها في نظر التاريخ وعلم العاديات . وليس لها مقام رفيع في باب البناء الحسن . والمصانع التي من هذا القبيل ليست بالكثيرة العدد وقد قام القصر الملكي اليوم محل القصر العربي وكان هنري الرابع جعل هذا القصر محلاً للصيد . وفي متحفها الوطني بعض آثار العرب التي افلتت من أيدي الذين زهدوا فيها بصنع المتعصبين من رجال الدين وخربوها واتلفوها . أما تاريخ هذا الحصن العربي أي مجريط فليس بعظيم وخلاصته انه أخذ من العرب ثم استعادوه الى ان استولى الاسبان على طليطلة سنة ١٠٨٦ م فاصبحت مجريط يومئذٍ اسبانية وقد زادت مكانة مجريط فكبرت رقعتها في الجزء الثاني من القرن التاسع عشر وذلك لاتصالها بالخطوط الحديدية مع الولايات ومع فرنسا والبرتغال وقد انشىء فيها في العهد الاخير تراموای كهربائي Mètropolitain تحت الارض على مثال تراموای باريز ولندرا وبرلين ونيويورك .

(١٢) دير الاسكوريال

اهم مافي ضاحية مجريط دير الاسكوريال على أحد وخمسين كيلو متراً منها بناه فيليب الثاني ونجزت عمارته سنة ١٥٨٤ وعمر فيه حفيده فيليب الرابع البانتيون مدفن العظماء من الآل الملوكي وقيل انه انفق على الدير خمسة عشر مليوناً ونصف مليون من البستاس اي الفرنك الاسباني .

والاسكوريال كما قال عنه واصفوه من الافرنج مثال مما تعمله الارادة ومما لاتعمله

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فقد قيل ان الادارة قادرة في بعض الاحوال وعاجزة عن ايجاد عمل واحد يدل على نبوغ ، وعبقرية وهذه الشعلة الالهية قد نقصت في عمل باني الدير . فمن شقائه انه نشأ في عهد لم يشتهر بقوة الايجاد ولا بسلامة الذوق فجاء بناؤه جافاً رغم ماتعاوره من ايدي المهندسين لم ينمّ عن لطف ولا حوى اسباب الجمال . وغلب على البناء تصنع الملك فيليب في مظاهر أبهته وعظمته ولطالما ضيّق صدور أسرته وحاشيته منه في هذا الشأن فلم يكن لهم همّ الا ان يدهنوه . وكان من طبعه ان يتدخل فيما لايعلم حتى افسد على المهندسين عملهم او كاد وجاء العمل الذي ابقاه للاعقاب حتى يفتخروا به وليس فيه كبير أمر من جمال الهندام والنظام ، اشبه بسجن مظلم وديماس منحوت .

واهم مايلفت النظر في هذا الدير دار كتبه وفيها خمسة واربعون الفاً من المجلدات حوت كثيراً من المخطوطات والنقوش والرسوم ومنها الكتاب المقدس الذي كان يقرأ فيه بعض ملوك اسبانيا في القرون الوسطى وبعضها كتب باللاتينية ومنها ماكتب بالاسبانيولية او اليونانية ومنها المزين باجمل الرسوم ومنها المذهب المكتوب على رق . ويهمنا من هذه المكتبة مجموعة الكتب العربية وهي الفا مجلد كانت السفن الاسبانية غنمتها من مركب لاحد ملوك مراكش المتأخرين . وكان في هذا الدير قبل القرن السابع عشر نحو ثلاثة آلاف مخطوط عربي فالتهمتها النار في الحريق الذي نشب في الدير مع ما التهمت من الكتب الاخرى .

فليست الكتب العربية في خزانة الاسكوريال اسبانية المصدر كلها كما اكد لنا احد علماء الاسبان وصاحب البيت أدرى بالذي فيه اخبرني ان الاسبان غنموا هذه الكتب من سفينة كانت لاحد سلاطين الغرب الاقصى فوقعت في أيدي الاسبان وقال آخر ان اصل هذه المجموعة كانت لاحد سفراء اسبانيا لدى الباب العالي ولما غادر الاستانة اهداها لملكه فوضعها في الدير الذي كان ملكاً له ولآله من بعده والرواية الأولى اصح .

وقد وصف هذه الكتب باللاتينية احد رهبان الموارنة من سنة ١٧٤٩ – ١٧٥٣ وفيها ١٩٥٥ مخطوطاً رأيت نموذجات منها وقرأت وصف الآخر فيما كتبه احد علماء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشرقيات من الفرنسيس ولا سيما القسم الذي يعنى منها .

عراني في هذا الدير ماعرا كثيرين قبلي من السويداء ثم السكون والراحة والبرودة التي تدعو إلى العزلة والتفكر والانكماش والدرس وانك لتشعر وانت تسير تحت قباب الاسكوريال العارية من التفنن والزينة بهواء بارد من حياة الاديار كما تشعر في مدارس اكسفورد وبيعها ، والنازل هنا بطبيعته يرى دافعاً من نفسه يدفعه إلى ان يشغل نفسه بشيء ، وما من ملجأ اوفق لنسيان العالم يحمل ساكنه على البحث عن الحقائق وعلى الصبر في كشف المسائل المتعذرة المبهمة المجهولة مثل هذه المعاهد .

(١٣) قرطبة والزهراء

باربعة فاقت الامصار قرطبة ... منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم اعظم شيء وهو رابعها

لم يكتب لي ان ازور مدينة طليطلة لأشهد فيها قصور العرب القديمة ومساجدها القائمة إلى اليوم وعادياتها المأثورة وكانت من عظائم مدائن الاندلس وهي من قرطبة على عشرين يوماً فاكتفيت بزيارة ثلاث مدن من أمهات المدن الاندلسية قرطبة واشبيلية وغرناطة وهي العواصم الثلاث التي تأصل فيها حكم العرب وطالت ايامه .

وقرطبة كانت في عزها اعظم مدائن الاندلس فاصبحت الآن وليس فيها من السكان سوى ثمانية وخمسين الف ساكن وقيل ان مساجدها بلغت الفاً وستمائة مسجد وحماماتها ستمائة وذكر آخرون انه كان فيها مائتا الف دار وثمانون الف قصر دورها ثلاثون الف ذراع وكان بخارجها ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منبر وفقيه مقلص[1] تكون الفتيا في الاحكام والشرائع له ، يأتون كل جمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويطالعونه باحوال بلدهم .

قال المراكشي بلغت قرطبة من القوة وكثرة العمارة وازدحام الناس مبلغاً لم تبلغه

(١) المقلس هو الذي يلبس القالس او القلنسوة وكان يحق للمقلس وحده في الاندلس ان يفتي وكان عليه ان يستظهر الموطأ والمدونة أو عشرة آلاف حديث وللمقلسين الحق ان يلبسو القالس فقط وتكتب بالصاد (قاله دوزي في ملحقه على المعجمات العربية)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بلدة . حكى ابن فياض في تاريخه في أخبار قرطبة قال كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون أمرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي. هذا مافي ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها وكان الماشي يستضيء بسرج قرطبة ثلثة فراسخ لاينقطع عنه الضوء .

وفي تواريخ الافرنج أن قرطبة كانت منقطعة القرين بين مدن الغرب أي أوربا وليس مايشبهها بعمرانها وسكانها فكان فيها خمسمائة الف ساكن و٢٨٧ ربضاً وهي مكتظة بالسكان وقد قامت المتنزهات البهجة المغروسة بانواع الاشجار على طول الوادي الكبير والقصور والمصايف مغطاة بالخضرة وكان في هذا الوادي الكبير أربعة عشر ألف قرية .

فقرطبة كانت اعظم مدينة بالاندلس وليس بجميع المغرب « لها شبه كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق » ووصفها المقدسي فقال : « وصف ماشئت من طيبها ورحبها فانها جنة الاندلس على ماحكي لي وهي مصر الاندلس وقد دلت الدلائل واتفقت الآراء على أنه مصر جليل رفيق طيب وأن ثم عدلاً ونظراً وسياسة طيبة ونعمة ظاهرة ودينا وهي في جهاد ونفير ابداً مع علم كثير وسلطان خطير وخصائص وتجارات وفوائد» وذكروا أن لاهل قرطبة رئاسة ووقاراً لاتزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم .

ليس في قرطبة اليوم من آثار العرب سوى قطعة من مسجدها الاعظم بناه عبد الرحمن الداخل وكان معبداً للو يزغوت على اسم القديس منصور وقد ملكه المسيحيون واخذ المسلمون نصفه سنة ٧٨٥ م ولما شرع بالبناء ابتاع عبد الرحمن النصف الآخر منهم كما فعل الوليد الأموي في دمشق يوم بنى جامعها واستصفى النصف الآخر من أربابه المسيحيين وعوضهم عنه كنائس أخرى .

وزاد الناصر عبد الرحمن بن محمد في المسجد الجامع بقرطبة زيادته المشهورة وفيها القبو الكبير الذي يصطف المؤذنون أمامه يوم الجمعة للآذان وهو من اعجب البنيان . وحبس المستنصر بالله على الجامع بقرطبة لما كملت زيادته ريع جميع ماجرته إليه الوراثة عن أبيه امير المؤمنين في جميع كور الاندلس واقاليمها على ثغور الاندلس كافة تفرق غلات هذه الضياع عاماً بعد عام على ضعفائهم إلا أن تكون بقرطبة مجاعة فتفرق فيهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومما قيل في آثار مدينه قرطبة وعظمها حين تكامل أمرها في مدة بني أمية أن عدة الدور التي بداخلها للرعية دون الوزراء واكابر أهل الخدمة مائة الف دار وثلاثة عشر الف دار ومساجدها ثلاثة آلاف وعدة الدور التي بقصرها الزهراء أربعمائة دار وذلك لسكنى السلطان وحاشيته وأهل بيته .

وقالوا إن المسلمين لما فتحوا قرطبة وجدوا بها آثار قنطرة فوق نهرها على حناياوثاق الاركان من تأسيس الامم الداثرة قد هدمها مرور النهر على ممر الازمان فتقدم إلى فضيلة النظر فيها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عندما اتصل به خبرها فأمر السمح بابتنائها فصنعت على اتم وأعظم مابني عليه جسر من حجارة سور المدينة . وربما كان هذا أول عمل في العمران قام على ايدي عرب الاندلس في القرن الاول للهجرة .

قال بعضهم لم يكن للعرب هندسة خاصة لما دخلوا قرطبة وكانوا يعتمدون على هندسة أهل البلاد التي تغلبوا عليها فنسجوا في بناء المسجد على مثال مساجد مصر ومسجد القيروان وكان هذا من اعظم مساجد الاسلام وقيل إنه بني على شكل مسجد دمشق وكان فيه ١٤١٨ سارية تشبه غابة ملتفة والباقي منها الآن ٨٦٠ وهي أدق من سواري الجامع الاموي اليوم وقال آخر إن الباني وأخلافه جلبوا هذه السواري من ابنية قديمة وبيع مسيحية في القاصية كجنوبي فرنسا وأفريقية أي قرطاجنة والاستانه وتبين أن اكثرها من مقالع اندلسية ومحراب هذا المسجد الجامع لايزال محفوظاً وهو دهشة إلى اليوم وإلى مابعد اليوم وعلو قبته تسعة امتار حفر في قطعة واحدة من المرمر وعمل بالفسيفساء وزبرت عليه آيات كريمة . وله اثنان وعشرون باباً معمولاً بالنحاس بقي الآن منها ١٢ باباً وعلى بعضها صورة نقوشها الاصلية وقد قام البرج الذي هناك مقام المنارة التي انشأها عبد الرحمن الناصر . يقول جوسيه لو اقيمت البيعة التي اقاموها وسط الجامع على عهد شارلكان في مكان آخر لصار لها شأن وهي هنا من ابشع آثار الهندسة إذ احدث بانوها بها ضرراً على بناء وحيد من نوعه في العالم .

وكان في جامع قرطبة سبعة آلاف مصباح تنعكس انوارها على النقوش المذهبة والزمرد والياقوت والمفصص وغيرها فتزيد في جماله وعلى ما أصيب به هذا المسجد من الاضرار بقي إلى اليوم من اغرب ابنية الارض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال غوتيه : لاسبيل إلى وصف التأثر الذي يشعر به المرء عند دخوله هذا المسجد الاسلامي القديم فيتراءى لك أنك تسير في غابة مسقوفة لا في بناء مصنوع وحيث اتجهت يضيع بصرك في صفوف من السواري تلتقي وتمتد على مرمى البصر مثل غراس من المرمر ظهرت من تلقاء نفسها على اديم الارض اه .

نعم إن البيعة التي أقيمت وسط جامع قرطبة والبيع الصغرى التي جعلت في أكثر زواياه قد شوهت من محاسنه وابدلته عن أصله وفي نية ديوان الآثار فيما بلغني أن يرجع القديم كما كان وينقل الآثار المسيحية من جامع قرطبة ليبقى بدون زيادة ولا نقصان طرازاً في البناء منقطع القرين في الارضين الا أن البيعة الوسطى بيعة شارلكان يصعب نقل انقاضها لما فيها من الزخرف ولما صرف عليها من المال .

هذا مابقي من آثار الاجداد في قرطبة وقد زرتها وارتاضها فرأيتها وهي على منبسط من الارض تشبه ضاحيتها ضواحي دمشق وهندسة أكثر بيوتها الجديدة على الطراز العربي البديع ولأهلها إلى هذا العهد حرمة له وغرام به وحرص عليه يعدونه من جملة مقدساتهم . وعلى أربعة أميال من قرطبة بنيت مدينة الزهراء سنة ٣٢٥ هـ بناها الناصر لدين الله الأموي في ست عشرة سنة وطولها الف وستمائة ذراع وعرضها الف وسبعون ذراعاً وجعل في سورها ثلثمائة برج وخص ثلثها قصوراً للخلافة وثلثها للخدم وثلثها بساتين وكان يدخل فيها كل يوم من الحجر المنحوت ستة آلاف صخرة سوى الآجر وغيره وحمل اليها الرخام من اقطار الغرب ودخل فيها أربعة آلاف وثلثمائة سارية وأهدى ملك الفرنج لبانيها أربعين سارية رخام واما الوردي والاخضر فمن إفريقية والحوض المذهب جلب من قسطنطينية والحوض الصغير عليه صورة اسد وصورة غزال وصورة عقاب وصورة ثعبان وغير ذلك والكل بالذهب المرصع بالجوهر وكان ينفق عليها ثلث دخل الاندلس وكان دخلها يومئذ خمسة آلاف الف وأربعمائة الف وثمانين الف درهم

وقال أحد المؤرخين إن مباني قصر الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية جلبت من رومية وقسطنطينية وقرطاجنة وتونس وأفريقية فيها خمسة عشر الف باب ملبس بالحديد والنحاس المموه وكان عدد الفتيان فيها ثلاثة عشر الف فتى وسبعمائة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وخمسين فتى وعدد النساء بقصر الزهراء ستة آلاف وثلثمائة امرأة وأربع عشرة امرأة وكان على الحجر الذي جلب من مقالع الاندلس أو حمل من القاصية نقوش وتماثيل وصور على صور الانسان ولما جلبه أحمد الفيلسوف وقيل غيره أمر الناصر بنصبه في وسط المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ونصب عليه اثني عشر تمثالاً . وقال بعضهم عمل في الزهراء عشرة آلاف عامل خمساً وعشرين سنة . وفي الشرق من الوادي الكبير مدينة الزاهرة التي بناها المنصور بن أبي عامر التي يقول فيها ابن عربي لما دخلها ووجدها متهدمة :

ديار باكناف الملاعب تلمع ... وما ان بها من ساكن فهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب ... فتصمت أحياناً وحيناً ترجع
فخاطبت منها طائراً متفرداً ... له شجن في القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكي ... فقال على دهر مضى ليس يرجع

وقد حرقت الزهراء وهدمت في حدود سنة ٤٠٠ هـ وبقيت رسومها وخربت قرطبة وما فيها من القصور والمرافق في حرب البربر وسقطت قرطبة في أيدي العدو سنة ٦٣٣ هـ بعد أن كانت مدة خمسة قرون وخمس قرن في أيدي العرب ولم يعد حكمهم اليها بعد ذلك ولما خلت قرطبة من سلطان يرجع إلى أمره صار كل من قويت يده عمر مدينة فخربت قرطبة وعمرت اشبيلية .

(الباقي يتبع)

محمد كرد علي

★ ★ ★

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net